

وهكذا ننظر إلى عائشة لنفسها فلا ترى أنها تقصر عن عائشة في المكان الذي خصتها به الآداب العربية ، ورفعها إليه الآداب الإسلامية والحظوة النبوية ، لأنه مكان قد استحقته لنشأتها في قبيلتها ودخولها في دينها ، واستحقته كذلك بما تميزت به بين أترابها من جمال وفهم ومعرفة وبيان .

زوج النبي

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها أول زوجات النبي عليه السلام وأحبهن إليه ، عاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ولم يتزوج عليها ولا فكر في الزواج بغيرها في حياتها . مع أنه بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين وهي في نحو الثلاثين أو الأربعين ، وبقيت معه إلى أن أوفت على الخامسة والستين ثم توفيت حوالي السنة العاشرة بعد الدعوة ؟ فلم يعرف عنه أنه حزن على أحد قط أشد من حزنه عليها ، ولا أطال الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطال ذكراها ، وسمى عام وفاتها « عام الحزن » لأن الحزن لم يفارقه طوال أيامه ، ولم يفارقه في الواقع - بقية حياته كلها ، وإن سكنت سورته مع الأيام كما تسكن كل سورة لاعجة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور

وتزوج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة بسنوات
فكان التقابل بين الزوجين من أتم ما تأتي به المصادفة
حين تكون المصادفة أحكم من التدبير والتقدير ، ولعل هذا
التقابل لم ينحل كل الحلو من القصد الخفى وإن لم تتجه إليه
النية في وضوح

ويبدو لنا أن النبي عليه السلام كان أحوج ما يكون
إلى هذا التقابل العجيب في حياته الزوجية

فالفى اليتيم الذى فجع فى حنان الأمومة منذ طفولته
الباكرة لم يكن أنفع له من زوجة كريمة رشيدة كالسيدة
خديجة التى أغدقت عليه من حنان الأمومة ما فاته فى بواكير
الطفولة ، وأدركه عطفها وهو يعالج من نوازع الدعوة النبوية
ثورة مقيمة مقعدة فى سريرة النفس ، لا تزال بين الجلاء
والغموض وبين الإقدام والإحجام ، ولا تزال فى هذه الحالة
على حاجتها القصوى إلى التثبيت والكلاءة والتشجيع

أما النبي فى الخمسين من عمره فقد كان أنفع له وأبهج
لفؤاده أن يغدق حنان الأبوة على زوجته التى تظفر منه بالحظوة
والمودة ، وأن يستروح من شبابها وجمالها نعمة تسعده فى جهاده
وربيعاً يظله فى وحشة عمره

كانت خديجة أمّاً ترعاه

ثم كانت عائشة طفلة تنعم بتدليله

وكانت خديجة تسعده بالعقل والحنكة
ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال
وكانت خديجة تصاحبه قبل الدعوة وهو يطلب الأنصار
في طوية النفس قبل أن يطلبهم في عالم النضال والبلاء
ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاحب دين
جهر وبهر ، فكانت هي أول سفرائه بالإصهار إلى رجالات
العرب ورؤساء العشائر والبيوت
كان تقابلا بين الزوجين الفضليين من أعجب ما تأتي
به المصادفة بل من أعجب ما يأتي به التدبير ، وليس هناك
تدبير معروف

فالذي نعلمه من خطبة النبي عليه السلام للسيدة عائشة
أنها كانت من المصادفات التي لم يتحدث بها قط قبل أن
تقترح عليه

نعم إنه عليه السلام قال لعائشة يوما : « أريتك في
المنام مرتين أرى أنك في سرقة من حرير ويقال : هذه
امراتك ! فأكشف عنها فإنما هي أنت . فأقول : إن يك
هذا من عند الله يمضه »

ولكن الحديث يدلنا على مبلغ ما كان في ضمير النبي
عليه السلام من هذه النية ، وقد يفهم منه أنه كان عليه
السلام يناجي نفسه الشريفة بأمنيته في الزواج فطابقت السيدة

عائشة مثال هذه الأمنية ، وكان هذا من بواعث حبه إياها
لمطابقة الرؤية ما تمثله في الرؤيا

فأما الخطبة فالذى نعلمه من الروايات المتواترة أنها جاءت
بعد اقتراح من سيدة بارة آلمها ما لحظته من حزن النبي على
زوجه العزيزة عليه . فقالت له : أى رسول الله ! ألا تتزوج ؟
فسألها : من ؟ قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً . ثم
سألها عن البكر فذكرت عائشة « بنت أحب خلق الله إليك » ..
وسألها عن الثيب فذكرت سودة بنت زمعة . فأوفدها إلى بيت
أبي بكر وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذى انتهى بالزواج
بعد سنوات

هذه السيدة هى نخولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون
من أجلاء الصحابة الذين حرموا الخمر في الجاهلية وعاش بعد
الإسلام عيشة النسك والحكمة . وبقية حديث الخطبة أنها
ذهبت إلى أم رومان - أم عائشة . فبدأتها بالحديث قائلة :
ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قالت : وما ذاك ؟
قالت : أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة . فاستمهلها
حتى ترى أبا بكر ، وقيل إن أبا بكر سأل حين بلغه الأمر :
وهل تصلح له وهى بنت أخيه ؟ يظن أن المؤاخاة بينه وبين
النبي قد بلغت مبلغ القرابة التى تمنع المصاهرة . فكان جواب
النبي لها : « قولى له أنت أختى فى الإسلام وابتتك تحل لى »

كما جاء في هذه الرواية

وإلى هذا الحين لم يكن في تقدير أحد أن صلة من
أوثق الصلات ستعقد بين النبي وصفيه الحميم . لأن عائشة
كانت مخطوبة قبل ذلك بلخير بن مطعم بن عدى من أصحاب
أبيها في الجاهلية . فتخرج أبو بكر من نقض خطبته قبل
مراجعته فيما ينويه ، وقال لأم رومان زوجته : والله ما أخلف
أبو بكر وعداً قط . ثم لقي أبا الفتى وأمه يسألها فيما يتويانه .
فأقبل الأب على امرأته يسألها : ما تقولين ! فالتفتت الأم
إلى أبي بكر وهي تقول متعلة : لعننا إن أنكحنا هذا الصبي
إليك تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه ؟ فلم يجبها
وسأل زوجها : ما تقول أنت ؟ فلم يزد على أن أجاب :
لأنها تقول ما تسمع

فعلم أبو بكر يومئذ أنه في حل من نقض وعده لمطعم
ابن عدى ، واستقبل النبي مخاطباً فتمت الخطبة في شوال
سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وأصدقها
النبي عليه السلام أربعمئة درهم على أشهر الروايات
وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم زفت إلى
النبي عليه السلام في السنة الثانية للهجرة ، فيحسبها بعضهم
تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات
وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل

المواليد . إذ قلما يسمع بإنسان - رجلا كان أو امرأة - في ذلك العصر إلا ذكر له تاريخان أو ثلاثة لميلاده أو زواجه أو وفاته . وقد يبلغ الاختلاف بين تاريخ وتاريخ في تراجم المشهورين فضلا عن الحاملين عشر سنين

والأرجح عندنا أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبي عليه السلام عن الثانية عشرة ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير

فقد جاءت في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال

ويؤيد هذا الترجيح أن السيدة خولة اقترحتها على النبي وهي في السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات إلى القبول . إذ لا يعقل أنها تشفق من حالة الوحدة التي دعته إلى اقتراح الزواج على النبي وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى

ويؤيد هذا الترجيح ، من غير هذا الجانب ، أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها إلى النبي ، وأن خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة

فإما أن تكون قد خطبت بلجير بن مطعم لأنها بلغت سن الخطبة وهي قرابة التاسعة أو العاشرة ، وبعيد جداً أن

تعتقد الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين
 وإما أن تكون قد وعدت لخطبها وهي وليدة صغيرة كما
 يتفق أحياناً بين الأسر المتألفة ، وحينئذ يكون أبو بكر مسلماً
 عند ذلك ، ويستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية
 قبل أن تتفق الأسرتان على الإسلام

فإذا كان أبو بكر رضى الله عنه قد وعد بها ذلك الموعد
 قبل إسلامه ، فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة
 وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها
 النبي عليه السلام

ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة
 يوم زفت إليه ، وإنها هي رضى الله عنها كانت تسمع
 تقديرات سنها ممن كان حولها لأنها لم تقرأها بداهة في وثيقة
 مكتوبة ، فكان يعجبها على سنة الأنوثة الخالدة أن تأخذ
 بأصغرهما ، وكانت هي كثيراً ما تدل بالصغر بين أترابها فلا
 تنسى إذا اقتضى الحديث ذلك أن تقول : وكنت يومئذ
 جارية حديثة السن ، أو كنت يومئذ صغيرة لا أحفظ شيئاً
 من القرآن ، إلى أشباه ذلك من أحاديثها في هذا المعنى

ذلك هو التقدير الراجح الذى ينفي ما تقوله المستشرقون
 على النبي بصدد زواجه بعائشة في سن الطفولة الباكرة ،

وكل تقدير غير ذلك فهو تقدير مرجوح

* * *

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الحديد من اللحظة الأولى لأنها كانت تدل فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف ، وبمكانة البنوة الناشئة عند الأبوة الرحيمة ، ومكانة ابنة الصديق العزيز التي أضفى عليها المودة والإيثار ما كان بين النبي والصديق من مودة هي أوثق وأبقى من مودة الرحم ، لأنها مودة الوفاء والإعجاب والإيمان ، أو مودة الحياة وما بعد الحياة

وقد سجلت لنا السيدة عائشة خطرات نفسها خطرة خطيرة ، ووصفت لنا في بيتها الحديد كل صغيرة وكبيرة وكل ظاهرة وخافية ، ولكنها لم تذكر لنا قط كلمة واحدة ثم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت ، ومن معيشة إلى معيشة ، ومن ظل أبوين إلى ظل رجل غريب عنها لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النبي كل صبية مسلمة في سنها الباكرة . لأن عطف محمد هو العطف الغامر الذي لا يلجئ إلى عطف سواه ، وقد أغنى زيدا عن أبيه وأمه فأثر حياة الأسر مع سيده على حياة الحرية مع أبيه وأمه ، فأحرى بمثل هذا العطف أن يغني الفتاة التي تأوى إليه فتلوذ منه بعطف زوج وعطف أب وعطف صديق

وتركها على سجيئها تلعب بالعرائس في بيت زوجها كما
كانت تلعب بهن في بيت أمها وأبيها . وربما جاءها صواحبها
الصغار « فينقمعن - كما قالت من رسول الله - فكان عليه
السلام يسر بهن إليها ليلعبن معها

وقالت جاريتها بريرة تصفها وهي في السنوات الأولى من
زواجها : « ما كنت أعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت جارية
صغيرة أعجن العجين وأمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي
الشاة فتأكله »

وكان عليه السلام يتعهدا بما يسرها وإن عجب الصحابة
الذين لا يفهمون وقار الدين كما يفهمه ولا تتسع صدورهم
لما يتسع له صدره . ودخل عليها أبوها وعندها قينتان تغنيان
في يوم مني والنبي عليه السلام مضجع مسجى في ثوبه ،
فصاح بها : أعند رسول الله يصنع هذا ؟ . . . فكشف
النبي عن وجهه وقال : دعهن فإنها أيام عيد

وكان السودان يلعبون في يوم من أيام العيد بالدرق والحراب
فسألها عليه السلام : تشهين أن تنظري ! قالت نعم . قالت
« فأقامني وراءه خدى على خده وهو يقول : دونكم يا بني
أرفدة - كنية الحبشة - حتى إذا مللت قال : حسبك ؟
قلت نعم ! قال فاذهبي »

وربما مر أبوها رضى الله عنه بالبيت فيسمع صوتها

عالياً في حضرة النبي عليه السلام ، فبدخل غاضباً يتناولها ليلطمها ويهرها قائلاً : لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله .
 فينهض عليه السلام ليحجزه ويقول لها بعد خروجه : رأيت كيف أنقذتك من الرجل ؟

وفي مرة من هذه المرات خرج أبو بكر مغضباً ثم عاد فوجدتهما قد اصطلحا . فقال لهما أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما

فقال النبي : قد فعلنا

ولم يخف هذا العطف الذي لا نظير له بين الأزواج على السيدة عائشة وهي ما هي في ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها . وازدادت به علماً يوم شاركها الزميلات في بيت النبي وشاءت الدواعي السياسية والدينية أن تتعدد زوجاته وتتعدد صلات المصاهرات بينه وبين قبائل الجزيرة العربية ، فقد عرفت مكانتها وهي بين تسع من الزميلات كما عرفت مكانتها وهي موشكة أن تنفرد في بيت النبوة ، وكان عليه السلام يعدل بينها وبين زميلاتها فيما يملك العدل فيه .
 أما ميل قلبه فكان يستغفر الله فيه قائلاً : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »

وشكرت له هذا الإيثار وفخرت به في معارض حديثها كلما بدا لها معرض للشكر أو للتحدث بنعمة الله عليها . فقص

عليها النبي يوماً قصة النسوة الإحدى عشر اللواتي اجتمعن
فتذاكرن أوصاف أزواجهن من خير وشر، وكانت الحادية
عشرة منهن - وهى أم زرع - محبة لزوجها ، فوصفته
بأحسن ما يوصف به الأزواج فى السر والعلانية . فقالت
السيدة عائشة : « بأبى وأمى لأنت يا رسول الله خير لى من أبى
زرع لأم زرع »

وهى القائلة بعد وفاة النبي فى مزاياها التى اختصت بها
دون أترابها : « فضلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم
بعشر ! لم ينكح بكراً قط غيرى ، ولا امرأة أبواها مهاجران
غيرى ، وأنزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى
من السماء فى حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد ولم
يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا
معرضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحي وهو
معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض وهو بين سحرى ونحرى
وفى الليلة التى كان يدور على فيها ودفن فى بيتى »

وكان هذا التمييز سر البيت النبوى فى مبدأ أمره ، ثم
شاع فى الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين
يؤخرها لبيعث بها إلى النبي وهو فى بيت عائشة

فوقع التغاير الذى لا محيص منه بين الزوجات ، وأرسلن
إليه إحداهن أم سلمة فأعرض عن حديثها ثلاث مرات ، فلما

أثقلت عليه قال لها : « لا تؤذيني في عائشة . فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة غير عائشة » يريد بالثوب البيت في بعض التفسيرات ، من قولهم ثاب إليه يثوب فهو في الثوب الذي لا يزال يرجع إليه .

وتوسلن بالسيدة فاطمة رضى الله عنها لما يعلمن من قبول أبيها لكل شفاعة تأتيه منها ، فقالت له : « إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر » قال لها يا بنية ! ألا تحبين ما أحب ! قالت : بلى . قال : فأحبي هذه . . . يشير إلى عائشة

ويسير على الزميلات المتنافسات أن يدركن حب النبي لعائشة ويلحظن أنها كانت أحبهن جميعاً إليه وأقربهن جميعاً إلى فؤاده

ولكن الذى لم يكن يسيراً عليهن أن يدركنه أو يلحظنه لأنها هي رضى الله عنها كانت أشدهن حباً له ونفاذاً إلى نفسه واتصالاً بقلبه ولبه

فكلهن كن يحببته ويتنافسن على قربه ولو كان فيه التنافس على الموت وفراق الدنيا ومن فيها . وحدثهن يوماً عن تلحق به بعد فراقه الدنيا فقال : « أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً » . . . فجعلن يقسن أيديهن وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هي صاحبة اليد الطولى . ثم ظهر لمن أن المراد بالطول

هنا طول اليد بالصدقة والعمل الصالح . . . فغبطن زميلتهن زينب بنت جحش ؛ لأنها استحققت اللحاق به لعملها بيدها وإكثارها من الصدقات على مستحقيها

إلا أن الحب الذي يبدو من فطنة عائشة لسرائر النبي أعمق وأقوى . فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها ومن نفذت إلى معانيه كما نفذت إليها ومن عاشرتة في روحه وطويته كما عاشرتة بروحها وطويتها . وفي كلامها من الشواهد على ذلك ما ليس في كلامهن على تيسر الوسائل لمن أن يعرفن مثل ما عرفت وأن ينقلن عنه مثل ما نقلت . وليس أدل على اقتراب الحب من هذا الاقتراب الذي امتازت به عليهن . فكان إيثار النبي لها ضرباً من العدل على هذا الاعتبار

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبينا

وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرجلها ، وكانت

تعجب بجماله كما تعجب بأدبه وعظمة قدره

وكان يسرها أن تستمع إلى صوته وتصغى إلى ترتيل حديثه

كما يسرها أن تستوضح معناه لأنه — كما كانت تقول لسائلها —

لا يسرد كسردكم هذا ولكنه « يحدث حديثاً لو عده العاد

لأحصاه »

وكانت تغار عليه أشد غيره عرفتها امرأة على زوجها ،

وربما خرج من عندها في ليلتها فإذا هي تتبعه إلى حيث

ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتهما، ووجدته في ليلة من هذه الليالي قد ذهب إلى المقابر يصلى للشهداء، ويستغفر لهم، فعادت إلى بيتها تقول لنفسها: بأبي أنت وأمي. أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا! ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خامرها من خاطرها الأول ومن خطأ ظنها. فلما قفل عليه السلام إليها لحظ ما بها فسألها: ما هذا النفس يا عائشة! فقالت: بأبي أنت وأمي. أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تستم أن قمت فلبستهما، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبيع تصنع ما تصنع.. وخرج مرة أخرى ثم عاد إليها فإذا هي في مثل تلك الحالة. فقال: أغرت؟ قالت: وهل مثلي لا يغار على مثلك؟ فقال: لقد جاءك شيطانك!

ولم تنس قط أن تتحلى بما يروقه من مرآها. فكانت تلبس المعصفر والمضرج وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية ودخلت عليها امرأة وهي معصفرة فسألها عن الحناء فقالت: شجرة طيبة وماء طهور. وسألها عن الحفاف فقالت لها: «إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن ما هما فافعلي»

ومن الجائز - أو ربما كان الواقع - أن زميلاتهما أمهات

المؤمنين كن يغرن على النبي مثل غيرها ويجهدن في رضائه مثل جهدها . ولكنهن ولا ريب لم يبلغن شأوها في حبها إياه حين نفهم من الحب ذلك الاقتراب بين النفسين بالبداهة والشعور . وليس في أحاديثهن عنه مثل ما في أحاديثها عنه من ذلك الإحساس بالقرب وذلك التفاضل إلى الطوية . وليست المسألة هنا مسألة الكثرة أو القلة في الأحاديث فربما كان تعليل الكثرة في أحاديث عائشة عن النبي أنه كان عليه السلام أكثر تحدثاً إليها وارتياحاً إلى مجالستها ومسامرتها . ولكنها مسألة الرفق في الأداة والخبرة بالمعنى والقدرة على الاستيعاب والشعور الباطن بقلة الحواجز بين النفسين واتصال الحس بينها واللقانة

ومن البديه أنها لم تبلغ هذه المنزلة في حب النبي وفهمه طفرة واحدة ولا في سنة واحدة أو سنتين ، بل لبثت السنوات الأولى من عشرتها له وهي تقرب من الأنس به إلى المعرفة بنفسه وعمقه والترقى إلى عظمته ونبيله . . . حتى أدركت ما يتاح لها أن تترك من تلك العظمة التي تعلو على هامتها وهامات الرجال من حولها ، ولكنها هي - ببداهة المرأة وبداهة الحب الأنثوي - كانت تستقرب ما يبعد على غيرها ، وتستعيض ما يفوتها من الفهم الواضح بما يفوتهم من اللقانة الباطنية والوعي المستسر في الأخلاق

ومضت السنوات الأولى في عشرة النبي وهي تفقه من أحاديثه ما تيسر لها أن تفقه ولا تقرأ كثيراً من القرآن ، أو كما قالت في حديث الإفك : كنت « جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . . . والتمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وقد أمهلها النبي في هذه السنوات رفقاً بها وإعداداً لفهمها وعزمها ولكنه لم يفتأ رويداً رويداً يشركها في العبء الذي ينبغي أن تنهض به زوجة النبي وأم المؤمنين وسفيرته الأولى إلى عالم النساء في عصره وفيما يليه من العصور .

فكانت تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه في أمور الدين وآداب الزوجية ، ويتفق كثيراً أن يعرض عن الجواب حياءً فيوكلها بالتفسير والإسهاب حيث يعز الفهم على سائلاته اللواتي يستقصين في السؤال .

سألته أسماء بنت شكل من نساء الأنصار : كيف تكون الطهارة من الحيض ؟ فقال لها : « خذي فرصة ممسكة فتوضأي ثلاثاً » أو قال تطهري ثلاثاً . . . فقالت : وكيف أتطهر ؟ قال : سبحان الله ؛ تطهري بها ، وأعرض بوجهه حياءً . فاجتذبتها السيدة عائشة وكفتها عن سؤاله .

وما زالت رضي الله عنها تعي من سنن النبي في المسائل

النسائية وغير النسائية حتى احتاج الرجال أن يسألوها ويرجعوا إليها في كل ما تراجع فيه السنن النبوية من شئون عامة وخاصة . ومن أعم المسائل التي روجعت فيها أن معاوية كتب إليها لتوصيه وترشده فأرسلت إليه تقول : سلام عليك . أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس »

فلم يكن أعجب من سؤال معاوية في تعميمه إلا حسن الاختيار في هذا الجواب . وهو ألزم ما يزود به الملوك من وصية وإرشاد .

وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعلم أحسن نهوض وأوفاه . فتورعت عن كتمان شيء من الأشياء التي تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصيام . فأسلوبها في تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم وأسلوب أم المؤمنين في خطاب بناتها وبنيتها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن في مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التي تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذي لا يغني عنه مرجع في سنن النبي ومأثوراته وأعماله . فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع .

ولقد تكون هذه السيدة الفضلى التي أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهي ما تأذن لعمها في الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبي عليه السلام . فأسلوبها في تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان قريضة الأمانة وضريبة الوفاء ، ولم يكن شيمة الطبع واللسان .

• • •

ودامت هذه الحياة الزوجية النادرة زهاء تسع سنين إلى أن توفى النبي عليه السلام .

ومن ، حتى أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأننا لا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها أو كانت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها .

ففي طوال هذه السنين لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر أو مساءة تعود فيها التبعة على أحد من الزوجين

وأخطر ما ألم بهذه الحياة الزوجية في السنين التسع كلها حديث الإفك الذي سنأتي عليه بعد ، وغضب النبي من زوجاته جميعاً لتنازعهن في نمرة من الزمن وإلحافهن عليه في طلب المزيد من النفقة والزينة

فأما حديث الإفك فلا يد للزوجين فيه ، وقد امتحنت به أريحية النبي وعطفه على أهله فأسفر عن خير ما تطمح إليه الزوجة من حنو وسماحة وإعزاز

وأما غضب النبي من زوجاته لتنازعهن وإلحافهن في طلب النفقة فعارض مضي مرة ومضى أمثاله عشرات من المرات في كل حياة زوجية بين جميع طبقات الناس ، وكان خير درس لأمهات المؤمنين يعلمهن أن يصبرن على ضرورات العيش كما يصبر النبي عليها ؛ لأنهن قدوة في القناعة ومغالبة الهوى ولسن يقدوة في الترف ونعمة العيش ، وقد خيرن بعد هذا الدرس بين الكسريح والصبر على نصيبهن فاخترن أجمل النصيبين . وهو الصبر على سنة الأنبياء وأمهات المؤمنين .

ومما زلنا شك فيه أن السيدة عائشة قد خامرها الأسي في هذه الحادثة الزوجية لشيء لا حيلة لها ولا للنبي فيه ، وهو الحرمان من الذرية التي كانت تتوق إليها تكما تتوق كل أنثى ، ولا سيما بعد ما علمت من حب النبي لزوجته الأولى ووفائه لعهدا وترديده لذكرها لأن له البنين والبنات منها

وظهر ألمها هذا حين قالت للنبي وهي حزينة كاسفة :
كل صواحي لمن كنى ! . . . قال فاكتنى بابنك عبد الله ؛
يشير إلى عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء . فجعلت تكتنى به وتحبه ذلك الحب الأموي الذي يستمد القوة من الحنو والشوق والحرمان .

واتفقت الأقوال على أنها رضی الله عنها لم تحمل قط إلا رواية جاء فيها أنها أسقطت ولداً سماه النبي عبد الله فكانت

لهذا تكنى بأُم عبد الله
وراقها أن تدعى أم المؤمنين وأن يتادياها الناس يا أمه
يا أمه ! فكان في هذا النداء تعزية كما كان فيه تشويق
وتذكير .

والمرأة لا يهون عليها فقد الذرية ولا سيما إذا أحببت الزوج
الذى تود أن ترزق منه الذرية ، ولكنها إذا التمس التهوين
فلن تجد تهويناً أبر بها وأروح لقلبها من شعورها بعطف
زوجها عليها ، وأنها بلغت من ذلك العطف ما لا تزيد الذرية
التي تتمناها

* * *

قلنا في كتابنا عبقرية محمد : « لسنا ندري لم طالت
الفترة التي مضت على أزواج النبي جميعاً بغير عقب . ولكننا
لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التي لا يندر أن تجتمع
في أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي
بكرًا غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي حول العشرين ،
وهي سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وإن كانت ولوداً فيما
بعدها . أما أزواجه الأخريات اللاتي تزوجن قبله فلا نعلم
من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلفاً غير رملة
أم حبيبة وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم
بنى بها النبي عليه السلام ، وفي عمرٍ لا يستغرب فيه امتناع

الولادة . فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله ،
 واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجبية المعضلة التي يصعب
 تعليلها إذا تذكرنا أن النبي قد توخى في اختيارهن تلك الأغراض
 العامة التي أجهلناها في الفصل السابق ولم يتحر منها النسل
 خاصة : وهي الإيواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن - بل
 معظمهن - قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة
 ما يعقم الولود . فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وضريبة
 العظمة النبوية التي أشرنا إليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال
 النبي فيما بين الحمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن
 ودرء الأخطار - لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر
 العصى على التعليل .»

وفي صدد الكلام عن عائشة في كتاب خاص بها
 يدعونا سياق التحليل والتعليل إلى مراجعة البحث والعلم في
 ظواهر حياتها البيئية ، إن كان للعلم كلمة تقال في هذا
 الموضوع .

فليس من الغريب أن يتأخر حمل المرأة إلى ما بعد العشرين
 ثم تلد مرات ، وقد كان من المحتمل - بل الراجح أن السيدة
 عائشة تجاوزت العشرين حين وفاة النبي عليه السلام
 وإذا كان تأخر الحمل إلى ما بعد العشرين لا يطرد لزاماً
 في أحوال النساء عامة فهو من العوارض التي تشاهد ولا تستغرب

إذا اتفق لها سبب يرجع في تعليقه إلى العلم والمشاهدة
والعوارض التي نستطيع أن نهتدى إليها في تاريخ السيدة
عائشة هي أنها قد أصيبت فيما دون العاشرة بحمى مزقت شعرها
كما ذكرت هي في بعض أحاديثها ، وأنها كانت توعدك من
حين إلى حين كما يفهم من قولها في حديث الإفك : « واشتكت
حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك
ولا أشعر بشيء من ذلك . . . ويريني في وجهي أني لا أعرف
من رسول الله اللطيف الذي كنت أرى منه حين أشتكى . . .
فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضى » . . .
وقط علمنا من حديث الإفك أنها إذا فوجئت بنجر محزن
أو مغضب تصاب بحمى نافض كما يصاب الذين تعاودهم
حمى البرداء في هذه الحالات .

والأطباء الذين سألتهم عن هذه الحمى التي تسقط الشعر
وتتجدد لها معاودة تنهك الجسم رجحوا أنها البرداء (الملاريا)
أو التيفويد ، والأولى أرجح . لأنها كانت فاشية بأعراضها
المعروفة بين أهل المدينة في أيام الهجرة .

قالت السيدة عائشة : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه
وسلم المدينة وهي أوبأ أرض الله أصاب أصحابه منها بلاء
وسقم ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأصاب
أبا بكر وبلا لا وعامر بن فهيرة ، فاستأذنت رسول الله صلى الله

عليه وسلم في عيادتهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب
فأذن لي : فدخلت عليهم وهم في بيت واحد . فقلت : كيف
تجدك يا أبت ؟ فقال :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
فقلت : والله ما يدري أبى ما يقول
ثم دنوت من عامر فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟
فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حثفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمي أنفه بروقه
قلت : والله ما يدري عامر ما يقول

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة

بواد وحولى إذخر وجيليل^(١)

وهل أردن يوماً مياه مجنة

وهل يدنون لي شامة وطفيل^(٢)

قالت عائشة . فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأخبرته فقال : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى .

(١) نباتات في وادي مكة أحدهما وهو الإذخر طيب الرائحة

والآخر الثمام

(٢) جبلان بمكة

فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها
وبارك لنا في صاعها ومدها وانقل حماتها فاجعلها بالحنفة «
وهي قرية في الطريق من مكة إلى المدينة

فإذا كانت حمى البرداء قد أصابت السيدة عائشة فيما
دون العاشرة وظلت عقابيلها تعاودها فأيسر ما يقال هنا أننا
حيال عارض ذي بال يلتفت إليه في تعليل ما أسلفنا

وسألت أفاضل الأطباء في ذلك فقالوا : إن هذه الحمى
لا تعطل الحمل ضرورة ولكنها قد تعطله من طريق إضعاف
الجسم كله حتى يتغلب على عقابيلها

قلت : وإذا أضيفت إليها معيشة الكفاف ؟

وإنما سألتهم هذا السؤال لأن المتواتر عن معيشة النبي
عليه السلام في بيته أنه كان لا يشبع من خبز البر أو الشعير
ثلاث ليال متواليات ، وأنه لم يشبع من خبز وزيت مرتين
في يوم واحد ، وأنه هو وأهله كانوا لا يصيبون من المطاعم
إلا بمقدار ما يدفع الجوع

فكان من جواب الأطباء أن عقابيل الحمى وقلة الغذاء
من الأسباب التي لا يعدوها النظر في بحث هذا الموضوع ،
فإذا صحت مع هذا رواية السقط فهي دليل على أثر تركته
الحمى يعترض وظيفة الحمل والولادة

وأيا كانت هذه العوارض فهي كل ما لدينا من أسباب

المراجعة العلمية التي تعلل لنا حرمان السيدة عائشة رضي الله عنها من نعمة الذرية . نلمّ بها لأن الإمام بها لا غنى عنه في هذا المقام

وأية كانت علة هذا العارض فالأمر الذي لا شك فيه أنه لم يكدر صفو المودة والبر بين النبي وأهله ، وأنه لم يمنع هذه الحياة الزوجية أن تكون قدوة للمقتدين في العطف وأدب المعاشرة . وكانت هي العروة الوثقى كما وصفها النبي عليه السلام . فإذا سألته السيدة عائشة بين الفينة والفينة مدلة بمكانها عنده وعطفه عليها : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ قال : على عهدنا لا تتغير

أما العلاقات البيتية التي فرضتها هذه الحياة الزوجية على السيدة عائشة رضي الله عنها فقد كانت على أحسن ما تتسنى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة

فهي وزميلاتها كن يتغابرن ويتنافسن لا محالة كما تتغابرن النساء في كل مكان ، ولكنهن لم ينسين قط أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ويتطلعن إلى رضاه ويفزعن من غضبه

فقصارى ما سمعناه من فلتات الغيرة على لسان السيدة عائشة أنها كانت تقول عن السيدة خديجة « إنها عجوز حمراء الشدقين » ثم يعاتبها النبي فتندم ولا تعود إلى مثل هذه

المقالة . . . أو أنها عابت السيدة صفية مرة فقالت إنها
قصيرة . . . فاستكبر النبي هذه الكلمة وقال لها إنها لتمزج
البحر إذا مزجت به . فلم تعد إلى مثلها

وعلى ما كان بين عائشة وزينب بنت جحش من التنافس
الشديد في الجمال والزلفى سنحت لزينب سائحة تقول فيها ما
تقوله الضرة المحنقة فلم ينبس فيها بكلمة باطل . وذلك إذ
سألها عليه السلام في حديث الإفك فاستعازت بالله وقالت
« أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً »

وأحست سودة إحدى زميلاتها أمهات المؤمنين أنها أسنت
وضعفت فتركت ليلتها لعائشة راضية ، وقالت عائشة تشكرها :
« ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون في مسلاخها من سودة »
فكل ما روى لنا من تغاير زوجات النبي إن ذكرنا أنهن
نساء من طينة الأنوثة الخالدة فلن ينسينا أنهن نساء نبي يتأدبن
بأدبه ولا يجاوزن بالغيرة ما يجمل بهن في كنفه ورعايته ،
وإن تسع أخوات شقيقات من أب واحد وأم واحدة ليقع
بينهن من شحناء الغيرة إذا اجتمعن في بيت أسرتهن أضعاف
ما روى لنا من غيرة زوجات النبي في عشرتهن الطويلة

* * *

أما قرابة النبي فأعزها قدراً عنده قرابة السيدة فاطمة وزوجها

وبنيها وكانت الصلة بين السيدة عائشة وبينهم جميعاً على أكمل ما ترضاه السجية الإنسانية في كل صلة من قبيلها

فالسيدة فاطمة كانت أحب الناس إليه عليه السلام كما هو العهد بأبوتة الشريفة التي تشمل الناس جميعاً بالحنان والمودة فضلاً عن بناته وبنيه . وسئل - كما قالت عائشة مرة - : من أحب الناس إليك ؟ فقال : فاطمة ! ثم سأل : ومن الرجال ؟ فقال زوجها

وفاطمة بعد أم السبطين اللذين كان عليه السلام يلاعبهما ويلطفهما ويوصي بهما ويسميها ولديه وهو مشوق إلى إنجاب الأبناء ، وهي كذلك بنت خديجة التي نfst عليها عائشة قديم مكانتها وطويل وفاء النبي لذكراها

فالسيدة فاطمة والسيدة عائشة شريكتان في قلب واحد تتنافسان عليه . ولكنها شركة بين كريمتين .

ومن أثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين أوفدن السيدة فاطمة إلى النبي ليعدل بينهن وبين عائشة فقبلت الرفادة

وربما خطر للسيدة عائشة أن علياً رضى الله عنه قد تأثر بهذه المنافسة يوم سأل النبي في حديث الإفك فقال : « . . . لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير »

ومن الصدق للتاريخ وللطبع الإنساني أن نلاحظ هذه الأمور ، لأن الطبع الإنساني لن يدع حقوقه على أبنائه ولن

يكون الإنسان من لحم ودم إلا إذا كان فيه للحم والدم نوازعهما
التي لا فكاك منها . وإن راضها أدب النبوة ونبل العشيرة فتأبث
إلى أكرامة تجمل بالكرام

فالصلة بين عائشة وقرابة النبي قد كانت صلة الأدب
والتجمل والمجاملة ، ولكنها كانت في مجال لا يغيب فيه التنافس
على العطف والإعزاز

والمثل هنا أيضاً قدوة المقتدين في الأسر العليا التي عرفها
التاريخ ، سواء منهم من أخذ بأدب الدين أو بأدب الدنيا
وهي على الجملة « حياة زوجية » سعيدة نزلت منها السيدة
عائشة منزلة الزوجة المدللة في طوال أيامها ، ثم منزلة الشريكة
المعينة في عبء التبليغ والرسالة ، وبلغت من الثقة بها في
هذه المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياة . فحفظت من تعليم
النبي ما لم يحفظه أحد ، وحفظت عندها النبي أغلى الودائع
من بعده . صحف الكتاب وسنته المشروعة لتابعيه .